

سانتيا كلوز

في

بغداد

قصة من بغداد 2000

استمعت امل باكتئاب الى الخطبة القصيرة التي القاها الأستاذ كريم. انه يتحدث بطريقة متعلمة، تقريباً وكأنه يعتذر عن شيء ما إلا ان ما كان واضحاً إنه يكاد يطير فرحاً.

(وإني اعلم ان طلابي) وختم خطبته قائلاً، (سيرحبون بالأستاذ الجديد بكل إحترام وتعاون، وضحك لمزحته (وسيطهرون كيف ان الأستاذ كريم قد احسن تدريسهم لموروثنا الأدبي العظيم، الصغيرة، فتجاوبت معه بعض الفتيات بإبتسامة مهذبة).

كان الأستاذ كريم عازب خجول، محترماً بين طلابه أكثر من كونه محبوباً. كثير من الطالبات اشتكين من واجباته المدرسية الصعبة وتقديراته الصارمة، إلا ان امل كانت تعتقد بأنه منصف بما يكفي. وعلى اي حال فلا يمكن لأحد ان ينكر ان الأستاذ كريم وبأسلوبه المتعلم قد درس بكفاءة وحماس، كان يحب الأعمال الأدبية للشعراء القدامى، وحاول بكل إصرار ان ينقل ثراء الأدب العربي لطلابه.

قالت امل لنفسها بتفكر (استاذ آخر يتركنا...كم واحداً حتى الآن؟ إنهم اربعة اساتذة لهذا الخريف). لكن من يستطيع لومهم؟ اي شخص يجد فرصة عمل حتى ولو كان عملاً متواضعاً وفي اي مكان -إلا ان يكون ذلك المكان هو العراق- سيكون مجنوناً إذا لم يتشبت بها. واخيراً حدث شيء جيد في حياة الأستاذ كريم، فقد حصل على عمل في احدى دول الخليج، وسيرحل في يناير مع إنتهاء الفصل الدراسي.

وبالرغم من ذلك، لم تستطع امل منع نفسها من الشعور بالخيبة. قلة من الأساتذة يدرسون بالإنتمام، فكرت هي، او محبة للتعليم هذه الأيام. ان الشخص الذي سيحل محل الأستاذ كريم سيكون من قعر الجرة. فلا يمكن لأحد ان يعيش على ما يُدفع للمعلم هنا... إلا الصراصير، بينما يرحل الأشخاص الأكفاء بعيداً.

ولاحقاً لمعت فكرةً براقة في ذهن امل. من باب التغير، هناك شخص جيد سيأتي! انه خالها عمر، قريبههم المشهور القادم من الولايات المتحدة، وحضوره متوقع هذه الأيام، سوف جلب معه اشياء تحتاجها العائلة بشدة ولا يستطيعون شراؤها في بغداد. والدة امل تواصل الحديث عن الفيتامينات والمستلزمات الغذائية، بينما لدى بلال فكرة غريبة، وهي ان الخال عمر تحدث عن ألعاب رائعة كسيارات وشاحنات وبالونات. حتى امل تمننت ان يكون هناك ما هو اكثر تشويقاً من كونه فيناتامينات وادوية. الخال عمر قادم وسوف تنتظر قدومه بفارغ الصبر لكن لاحقاً، هو ايضاً سوف يرحل.

اثناء فسحة اليوم الدراسي، خرجن الفتيات باتجاه باحة المدرسة، ليتجمعن في حلقات ويهمهن. عادة ما تنضم امل الى احدى المجموعات الهادئة، لكنها اتجهت هذه المرة الى الفتيات اللواتي يتجمعن حول هالة. كانت امل تشعر بالفصول تجاه ما سنقله هالة عن الأستاذ كريم. جميلة وواثقة في الثالث عشر من عمرها، فقد كان دوماً لهالة شيء ما تقوله عن كلوحدث جديد.

قالت بصوت مسموع وواثق (درسنا الأستاذ كريم جميع دروس الأدب العربي في هذه المدرسة ولسنوات، وقد حان وقت التغير، كأن يأتوا لنا بشخص شاب ووسيم، حديث التخرج من الجامعة، هذا سوف يخلق روحاً جديدةً في فصلنا!)

(وهل هناك من يدرس الأدب العربي في الجامعة؟) سألت رفيقة (هل هناك من يدرس شيئاً أصلاً؟) ترددت هالة، ثم استجمعت شجاعتها ولمع بريق في عينيها (حسناً، بالطبع! فالحياة يجب ان تستمر، لذا سنذهب الى المديرية ونخبرها بأننا نصر على ان يأتي استاذ شاب ووسيم ليحل محل استاذ كريم).

ضحكن الفتيات، وقالت إحداهن فعلاً... و لا يهمنا إن كان يعرف شيئاً عن الأدب العربي ام لا).

حدثت امل نفسها (مسكين الأستاذ كريم فكرت امل محدثة نفسها. يبدو كالأخرق بجسده النحيل ووجهه ذو العظام البارزة، لكنه استاذ جيد، اني افضل ل يكون استاذي جيداً ذو مظهر اخرق على ان يكون وسيماً ولكن لا يجيد التدريس، وليس ذنب الأستاذ كريم انه نحيل).

وتساءلت، هل كانت ستشعر بذات الشعور قبل عام من الآن؟ قبل ان تمرض... وهل كانت على استعداد للتسامح مع استاذ لم يكن مثالياً؟. لا، بل ستكون منتقدة ونمامة، تماماً مثل الآخرين، قبل ان تصاب بالمرض. تفكيرها بنحالة الأستاذ كريم ذكرتها بنفسها، وكيف ان ملابسها تدلت على جسده باتساع في الربيع الفائت، ومع عدم وجود دواء يستطيع والديها شراءه، كانت ستستمر معها نوبات الإلتهاب الرئوي الى الأبد، ما زالت تتذكر عندما بدأت تتعافى اخيراً، و تذكر صدمتها حين نظرت الى المرأة لأول مرة... كان وجهها دون لون، خذاها اجوفان، عيناها تكادان تكونان كبيرتان بالنسبة لوجهها، وذراعها التان كانتا سابقاً جيدتان في تسديد رميات كرة السلة، تتدليان كأغصان ذابلة الان - كم من الوزن خسرت هي؟ يكاد يكون 20 رطلاً.

لكنها تبدو الآن بصحة جيدة، إلا انه توجب عليها ان إعادة عامها الدراسي، وبالرغم من إنها تكبر زميلاتها بعام، إلا انها بدت كالغريبة بين مجموعة من الفتيات الجديرات وبملابسها الواسعة التي تعوزها الأناقة، بدت كالخرقاء بينهم.

حينها فقط، لمحت الأستاذ كريم يسير في دربه بخجل عبر باحة المدرسة. قطعت الأثرثة لفترة حين لحظته الأخريات ايضاً. فجأة تحدثت امل، فتفاجأت من نفسها كثيراً كما تفاجأت الأخريات. (اعتقد اننا يجب ان نقدم هدية للسيد كريم). التفتت نحوها سبع او ثمانى وجوه، وكأنها كسرت قانوناً ما. تسألت هالة (لماذا؟ لنكافأه على اعطاءنا درجات منخفضة!)

قالت امل (انه.. انه يعطينا الدرجات التي نستحقها انتم تعلمون بأنه منصف)

بموجة من الحماسة جرت في حديثها وربما بدت كالواعظ الذي يبدي إحتراماً لمعلمه بطريقة كلامها عن الأستاذ، لكنها لم تشعر بهكذا إندفاع منذ مدة طويلة، بدا شعورها مثلما كانت تشعر في الأيام التي سبقت مرضها، عندما كانت في وسط حلقة من الفتيات الواتي ينظرن اليها بإعجاب. في تلك الأيام كانت تشعر بالعزيمة والمرح، متلهفة لكل يوم جديد و ما يمكن ان يحمله، اما هذه الأيام فهي لا تشعر بذلك.

ولكن ها هي، وفجأة، عادت لتتحدث بينما يستمع لها الآخرون! واصلت، قبل ان تفقد حماسها. (الا تعتقدون ان السيد كريم عادةً ما يحاول بذل جهده؟ هو حقاً يهتم بنا، ارادنا ان نستوعب ما كان يدرسنا).

فتاتان او ثلاث تتمن بالموافقة (فعلاً، انه ليس بذاك السوء)

قالت امل بحزم، رغم ان قلبها كان يدق بشدة، (والآن سوف يرحل وقد لا نجد استاذاً، تشجعت، بكفاءته، علينا ان نوجبه، انه من دواعي الشرف ان نكرم استاذ جيد).

(نعم) قالت إحداهن قائلة (هذا ما يقوله والدي، ان امل على حق)

هنا استأنفت هالة بقولها (لماذا؟ بالطبع انا لم اقل بتاتاً اننا لا يجب ان نهديه، هل فعلت؟ من الطبيعي ان نقدم له هدية، عادة ما نفعل هذا للأستاذ الجيد).

نظرت حولها، رأت امل الفتيات يومئذ برؤوسهن، ها قد صادقت هالة على الفكرة، إذاً فجميعهن سيأيدنه. كثير من الطالبات سيستصعبن فكرة ايجاد مال للهدية، وامل تعي ذلك، لكن رقيقات هالة ينحدرن من اسر ميسورة الحال، وهؤلاء اشخاص ذوي صلات غامضة والتي تؤمن لهم دخلاً مالياً كريماً، تعرف امل معرفة اليقين ان في جيوب هؤلاء الفتيات بضع نقود.

(إذاً) واصلت هالة (حسناً... دعونا نتفق ماذا سنعطي استاذنا الفاضل؟ فالنقترح احداً شياً)

ماذا سيكون بالفعل هديةً جيدةً بالنسبة لرجل؟ وبعدها قُدمت بعض الإقتراحات، وكان كل إقتراح يُسفه من قبل فتاة او اخرى.

(سترة صوفية، او قميص) (مكلف جداً) تقول اخرى (غالي جداً)

(وشاح؟). لا تكوني سخيفة... من يحتاج الى وشاح في دول الخليج

(حسناً إذاً... ربطة عنق، تلك الربطة البني الذي يرتديه قد عفى عليه الزمن، و ربما عطر الكلونيا)

(طقم مكتب، كما تعرفن، تلك التي فيها مكان لوضع الأقلام، ومشابك للورق)

كانت هالة تعبس عند سماع كل اقتراح لكنها لم تقدم اقتراحها الخاص، ثم سمعت امل نفسها وهي تقول (كتاب... اعتقد اننا يجب ان نهديه كتاباً، فبعد كل شيء، انه مدرس أدب)

(الكتب مملّة جداً) اعترضت هالة (اشك في انه يرغب حمل مكتبة معه)

تحدثت رقيقة (إننا لا نحتاج الى اعطائه مكتبة كاملة، فقط كتاب واحد، وان يكون كتاباً جميلاً) (الكتاب هدية شخصية) قالت امل (لكنها ليست شخصية جداً)

(حسناً انا اصوت للكتاب) قالت رقيقة بحركة مسرحية برأسها جعلت شعرها الأجدع يتمايل، فتمايل. وايدنها العديد من الفتيات.

كتفت هالة يديها ونظرت جانباً كمن يفكر في الأمر بعمق، ثم اعلنت (حسناً، سنهديه كتاباً، على اي حال هذا ما كنت افكر فيه، سنحتاج الى لجنة، آآآ... رقيقة، انا و انت....).

وترددت هالة مرة أخرى، وهنا ارتأت امل ان الباب قد فُتح على مصرعيه لها. انها فرصتها، لم يعد هناك من داعي للتلعثم امام هؤلاء الفتيات الواتي يصغرنها سنأً ولا يعرفن بقدر ما تعرف.

قالت هي (يمكنني اختيار كتاب وان ارادت واحدة منكن مرافقتي فلا مانع. لكن على اي حال، استطيع القيام بذلك) .

(انت؟) قالت هالة (وكيف لك ان تعرفي نوع الكتاب الذي يفضله الأستاذ كريم؟)

امام هذا التحدي، شعرت امل بإشتعال التوهج القديم فيها، فردت قائلة (شيئاً ما له علاقةً بالأدب، شكسبير او تولستوي، واحدٌ من هؤلاء الأدباء، وفي الواقع يمكن لعائلتي ان تساعدني، فقد كان جدي استاذ للأدب في جامعة بغداد).

لثواني كان هناك صمت، وكان كل واحدة منهن كانت تتوقع من الأخرى ان تتكلم، بينما نظرت فتيات اخريات تجاه امل بترقب، وحين لم تتطق احداهن، تحدثت هالة بثقتها المعتادة (حسناً... فلتعطي ذلك، واين تكمن الصعوبة في شراء كتاب؟ هل منكن من تريد الذهاب مع امل؟ وعموماً اذا ارادت احداكن ان تذهب معها فالتفعل كل واحدة منكن يجب عليها ان تحضر مالاً غداً او فالقريب العاجل، فالنقل مائة دينار، جميعنا نستطيع التبرع بهكذا مبلغ... اليس كذلك؟).

قالت امل (جيد حين نملك المال الكافي، انا واي ممن تشاء منكن مصاحبتي سنذهب لشراء كتاب جميل للأستاذ كريم، نريده ان يرحل عنا حاملاً ذكريات جميلة... اليس كذلك؟)

(حسنٌ جداً) فكرت امل يا هالة... لقد ادرت المشهد بعناية،(ولكن ما ان يصبح المال في يدي، حينها انا من ستختار الكتاب وانا التي ستقدمه للأستاذ كريم).

التوقيت سوف يكون مهماً، وامل تعي ذلك. قلفائياً سيعتبرها الأستاذ كريم رشوة، لذا يجب ان تنتظر حتى نهاية العام الدراسي وتحديدأً بعد الإمتحانات ليقدم الهدية لكن شيئاً آخر شغلها، فمائة دينار كثيرة بالنسبة لها، بالطبع هي ليست كذلك بالنسبة لهالة ورفيقاتها ولكنها كذلك بالنسبة لوالدي امل، فوالدها موظف بنك، ووالدتها معلمة في مدرسة ابتدائية، وسيكون من الصعب تأمين هذا المبلغ. في اي موقف وضعت نفسها؟

في وقت لاحق من ذلك اليوم، ذهبت امل لتصطحب اخاها بلال من المدرسة، وكالعاد قرأودها القلق من ان تكون قد تأخرت عليه، فالمسافة طويلة، انه طفل بالكاد بلغ السابعة من عمره، نحيل وصغير. كان بلال ذكي ولكنه قلق. ان ابسط الأشياء يمكن ان تجره الى نوبة من الإهتياج، وما ان يقتنع بفكرة ما، حتى يلح بها حتى الموت، فإذا اقتنع ان اخته لن تأتي لإصطحابه اليوم، فإنه سيرفض ان يصدق انها هنا، حتى لو انها امسكت بيده. وابتسمت امل لتفكير أخيها.

وصلت امل للمبنى القديم و المتهالك الذي يضم باحة المدرسة الصغيرة، حيث يوجد حوض وحيد فيه نبتة سقيمة وضعيفة، كانت تمثل مظهر الجمال الوحيد في ذلك المكان، كان قلق امل في محله، فجميع الأطفال قد ذهبوا ولم يبقى الا بلال وحده يتقافز بإهتياج هنا وهناك، لتكشف لاحقاً ان لا علاقة لتأخرها بإهتياجه، صرخ بلال وهو يركض نحوها قائلاً (انه قادم... انه قادم، اليس كذلك يا امل؟، سامي الأبله لا يصدقني).

كانت والدة سامي تسحب ابنها، حين التفت سامي للوراء وقال بوجه يحمل الإصرار (ذلك ليس صحيحاً، بلال يخترع القصص)، هنا ارتفع صراخ بلال، بينما جرت والدة سامي ابنها، في هذه اللحظة كانت إحدى المعلمات تسير باتجاه باحة المدرسة، توجهت نحو امل لكي توضح لها امر ما، بينما انشغل اخوها بنوبة غيظ و غضب اجتاحتها.

قالت المعلمة وقد بدا من مظهر شعرها الأحمر المشعث الذي يصل طوله لكتفها التعب والإرهاق، كما لو انها خرجت من معركة للتو، (يقلقني ان اقول اننا قضينا وقتاً عصيباً مع بلال اليوم، اني اخبرك بذلك لتعلمي امك فتعرف كيف تتعامل معه)، كانت امل تنتظر بقلق ما الذي سيحدث بعدها..

بينما اخت المعلمة نفساً عميقاً وواصلت (منذ ايام مضت، اعطاني احدهم كتابا، تعرفين اننا لا نملك كتباً كثيرة، ولم نحصل على كتب جديدة منذ سنوات. على كل انا مسرورة بامتلاكي احده الان ولربما بعض المنظمات الإغائية قد ارسلته الكتاب عن الميلاد المجيد، لكنه ليس كتاباً دينياً، انه عن سانتا كلوز والذي نعرفه بإسم بابا نويل. انهم يطلقون عليه سانتا كلوز في امريكا، سانتا كلوز الذي يركب عربة تجرها الغزلان بينما يوزع الهدايا على الأطفال، ولذا انا اقرأه للأطفال وقد احب الأطفال القصة وارادوا سماعها مرة تلو مرة، تلو مرة، وربما كانت هذه غلطتي) ثم سهمت بنظرها.

وقال بلال ليقول وهو يجر يد اخته (انها ليست غلطة، انها حقيقة، اخبريها يا امل)، ابتسمت المعلمة في وجهه ابتسامة متعبة فاقدة للأمل، وسكتت وكأنها غير متأكدة عن كيفية الإستمرار في القصة.

حاولت امل المساعدة بعد ان وجدت رابطا بين ما يدور في راس اخيها والواقع، فقالت: (لدينا خالٌ قادم من امريكا، وربما هذا ما يفكر فيه بلال، سوف يصل غداً او بعد غد)، حينها راق وجه المعلمة بينما احمر وجه بلال وهو يقول (سانتا كلوز قام جالباً معه الألعاب والهدايا، اخبرتني امي انه سيجلب سيارة حمراء... انه سانتا كلوز يا امل او مثله).

يا إلهي.. هل حقا وعدت امي اخي بلال بأن الخال عمر سيأتيه بالألعاب؟ لكن امل لا تستطيع ان تفهم كيف حول اخاها بلال الخال عمر الذي يتلهفون للقائه الى سانتا كلوز بعربة ملأى بالألعاب، فحين يصبح شيئاً ما هاجساً لدى بلال فلن يكون امام والدتها الا ان تؤيه حفاظاً منها على سلامة عقلها، الى جانب هذا ان الطفل لم يحصل على لعبة جديدة منذ زمن بعيد... لا في العطل ولا اعياد الميلاد، فالألعاب مكلفة للغاية، ويستطيع المرء ان يعيش دون العاب، فكل هدية يتلقاها كانت يجب ان تكون عملية، فإما ان تكون ملابس، فرديتي حذاء، اقلام او حقيبة مدرسية.

(ذاً هكذا الأمر)، قالت المعلمة وقد سحبت المعلمة سترتها الصوفية المهترئة بقوة لتحتمي من الهواء البارد (لقد اصر على قصته بينما لم يصدق بقية الأطفال، بالطبع ارادوا تصديقه، لكنهم في واقع الأمر لم يفعلوا، لذا كان علينا الدخول معه في عدة مجادلات عديدة خلال الأيام القليلة الماضية).

اومأت امل برأسها في محاولة لتأكيد ما قالته المعلمة وازافت (نعم، فعلى العموم شخصٌ ما سوف يأتينا بالفعل، سواء كان سانتا كلوز او بابا نويل، او اي شخص جيداً، بلال على حق، فهو سيجلب معه.... اشياء جيدة) ولم تكن تستطيع ان تقول بثقة (وسيجلب العاب!!)

(انتم من محظوظين) همهمت المعلمة وسارت نحو المبنى ، ثم توقفت لتضيف (إذاً لن نتحدث مرة اخرى عن هذا الموضوع، حسناً يا بلال؟ نحن نفهم الآن ان شخصاً لطيفاً سيأتي لزيارتكم، لكن علينا ان لا نتحدث عن هذا الموضوع لأن الأطفال الآخرين سيشعرون بشعور سيئ. اليس ذلك صحيحاً؟).

هدأ بلال وقال (نعم) وظل يردد بصوت هامس (سانتا كلوز... سانتا كلوز)، اجابته امل (نعم يا بلال، والآن علينا ان نسرع، ماما سوف تكون بانتظارنا).

غادرا ساحة المدرسة وسارا عبر الطرق الباردة التي تحفها برك الوحل والقمامة، بينما شعرت امل بالراحة لأن اخاها عاد لهدوءه، لكنها تضايقت من نفسها، فهل كان عليها ان تجعله يستمر في التفكير بقدم سانتا كلوز؟ ام كان عليها ان تصوب كلامه منذ البدء؟ لكنه في هذه الحال، سيعود الى هيجانه مرة اخرى، وسيقود معلمته المسكينة الى الجنون، ماذا كان عليها ان تفعل؟ على اي حال، سيتخطى هذه القصة، وسينسى الأمر، لم تملك امل الا ان تأمل ان يأتي خالها عمر بشيء جميل لبلال، وبعض انواع من الأدوية التي سوف تساعد لهيأ.

وصل الخال عمر لبغداد، وبدء جولته على الأقارب، وحين جاء دور عائلتها، عادت امل من المدرسة لتجد والدتها في معمعة طبخ لم تراها منذ سنين. (ماما) قالت امل (لديك ما يكفي من العمل، دعيني اساعدك في قلي الباذنجان) التفتت والدتها نصف التفافة مبتعدةً عن موقد الكيروسين وقالت (لا انا من سيفعل ذلك، لكن يمكنك ان تعنتي باللحم المشوي، لا تطبخيه كثيرا، سيصبح قاسياً)، توجهت امل الى الشرفة الصغيرة حيث يوجد الموقد النحاسي، حاملة بإحدى يديها اسياخ الحديد وبالأخرى طبق مكعبات اللحم مع البصل، لم يكن هناك سوى بقايا الحطب -لا فحم هنا- تلك الأحطاب تشتعل بسرعة وتخبو بسرعة ايضاً، والأعتناء بالنار المتقلبة والكباب الذي يشتاظ بسهولة سيبيي امل مشغولة.

كانت امل متأكدة من ان العائلة الأخرى التي ستأتي مع الخال عمر، ستجلب معهم بعض الأطعمة، لذا حاولت ان تثني والدتها عن طبخ كثير من الأطباق، لكن والدتها كانت مُصرّة، فبحسب اعتقادها مهما فعلت لأخيها عمر فسيتقى مُقصرة، سيكون من الخزي إذا لم تقيم له مأدبة لائقة به، وبعد كل هذا، فالخال عمر قد ذهب في كل ليلة الى منزل عائلة مختلفة منذ ان وصل قبل اربعة ايام، وكل عائلة قامت بأفضل ما عندها، ودون شك لن تستطيع امها ان تسبق اخواتها...بتاتاً؟ وعل اي حال فمأدبة اليوم تعني انهم سيتناولون العدس لبقية الشهر.

ان التحدي الذي اساسه القيام بالقليل قد يذهب بك بعيداً، فقد كان بادياً على والدة امل التعب والعناء، فبعد يوم طويل في التدريس، كان عليها ان تقف في طابور لتشتري ما يلزم من الجزار، ثم الإسراع للمنزل لتعد طبقاً تلو الآخر، جميعها اعدت بموقد الكيروسين المعطوب، فمواقد الغاز قد توقفت منذ عدة سنوات، و والدة امل دائماً ما تقلق من خطر النار، لهذا طلبت منها الخروج من المطبخ بينما كان الباذنجان يفرقع الزيت الساخن من حوله، وحين نضج اللحم وبدأت رائحته تدل على نضوجه، حملته امل ال الداخل، قائلة لأمها (وماذا الآن يا ماما؟ هل احضر مكان تناول الطعام؟) بدا على والدتها الحزن للحظة، فقد بيعت طاولة الطعام الثقيلة التي كانوا يمتلكونها، واصبحت العائلة تتناول وجباتها على مفرش بلاستيكي يفرش على الأرض وسط غرفة المعيشة، في البدء تظاهرت امل و بلال كما لو انهم في رحلة، لكن الفكرة سرعان ما فقدت بريقها.

ردت امها (نعم... لعشرة اشخاص، فريدة وزوجها شمام واطفالهم الثلاثة، عمر، ونحن. حين تنتهين من فرش السفارة، حاولي ان تجدي شيئاً تفعلينه لأخيك، ابقيه هادئاً، لا اريده ان يبدأ انفعالاته بمجرد وصول عمر).

ولدهشة امل ان بلال لم يتطرق لموضوع سانتا كلوز منذ وصوله من المدرسة، ويبدو بأنه فهم ما قالته معلمته من ان عليه ان لا يبوح بالأشياء الجميلة، وربما نسي الأمر!! وقررت امل بأن عدم إخبار والدتها بحادثة سانتا كلوز التي كانت ستثقل صدرها كان خير قرار.

ولكي لا يزيدوا من حماس بلال، لم تتحدث امل ولا والدها عن قدوم عمر كثيراً، إلا ان ذلك كان صعباً، فجميع من في العائلة والذين زارهم عمر، خالاتها، وخالها وعوائلهم، قد نشروا انباء عن قدومه بثلاث حقائب مكدسة، ناهيك عن سترته ذات الجيوب الممتلئة، وتمنت امل ان يكون قد احضر بعض الهدايا، كمشابك شعر جميلة، او زوجي جوارب جيدة، او ربما بلوزة، كما تنمت لو انها تستطيع ان تتحدث بسعادة عن توقعاتها، لكنها ابقت فمها مغلقاً.

واخيراً، اصبح العشاء جاهزاً، ووصل الخال عمر منهكاً من الصعود الى الطابق الرابع، تلاه بابا حاملاً حقيبة كبيرة، بدا الخال عمر متعباً، بعينان حمراوان، وخدان ممتلئان، وستره رمادية تشوبها البقع، دون رباط للعنق، لم يبدو بالنسبة لأمل كخال غني قادم من امريكا، لكن الهتاف والأحضان وسيل القبلات سريعاً ازال اي اثر لإستنكاراتها.

كانت ماما سعيدة لدرجة انها لم تتوقف من التريبت على وجهه قائلة بصوت باكي (عشر سنوات يا عزيزي... عشر سنوات)، وبعد دفع الحقائب الى غرفة النوم، سحب بابا ذراعي الزائر وقبله بتكرار على وجنتاه، مرتباً على ظهره، اشرق وجه خال عمر المتعب، وامتألت عيناه بالدموع عندما قبل امل وبلال.

وحين وصلت الخالة فريدة وزوجها شمام وابناؤهم الذين يكبرون امل، تكرر مشهد الهتاف والتقبيل والأحضان، شعرت امل بأن العبرات تخنقها، ولم تلاحظ في وسط هذه الموجة من العواطف محاولات اخيها بلال للفت انتباهها، الى ان سحب يدها بقوة ولعدة مرات، فإنحنت أخيراً لتتمكن من سماعه وهو يهمس محدقاً في الزائر الجديد ليقول (لا يبدو كما يجب ان يكون يا امل... لماذا يا امل لا يبدو كما يجب عليه؟).

في البدء اندهشت وتساءلت كيف يمكن لبلال ان يعرف الشكل المفترض ان يبدو عليه الخال عمر، ثم فهمت ما يعني وحاولت جاهدة ايجاد جواب سريع.

نعم فصورة كسانتا كلوز او بابا نويل او اي شئى يكن اسمه، تظهره بمعطف احمر او ما يشبه ذلك. سحبت بلال الى زاوية الغرفة، جلست القرفصاء لتصبح قريبة منه، وقالت له (انه لا يستطيع ان يرتدي ملابس المناسبة في جميع الأوقات، فهي ربما بحاجة لتنظيف).

همس بلال (لا... اعني انه دون لحية)، ردت امل (ااه... هذا ما تعنيه، لقد حلقتها، بعض الرجال يعتقدون انها تليق بيهم، ثم ينزعون منها فيحلقونها).

نظر اليها بلال بر بية واراد ان يضيف (لكن ...)، في هذه اللحظة جرت احدى قريباته المراهقات وحملته بين ذراعيها لتريه للخال عمر، والتقطت امل نظرة اخيها المتساءلة، ثم حول اهتمامه لضيوفه المحبين وبدا جلياً ان بلال قرر ان يصبح محبوباً، على الأقل في الوقت الحاضر.

كان عشاء امي معجزة بشهادة الجميع، وفرحت امل برؤية والدتها سعيدة، فقد ابدى جميع الحاضرين اعجابهم به، كان الباذنجان المحمر متبلاً بمثالية، اللحم المشوي ممتاز، و البطاطس المقلية مقرمشة، السلطة شهية، والبرتقال رائع، افضل من اي برتقال منذ... لا احد يذكر منذ متى؟ اما بالنسبة للتحلية، لم يكن هناك شئ، حتى اخرج الخال عمر جرة من مربى التين، كان قد احضرها معه من مطار الأردن، مربى التين والخبز، وهل سيحتاج المرء لأكثر من هكذا تحلية؟

واخيراً حان الوقت ليروا ماذا احضر الخال عمر ايضاً، سحب بابا الحقيبة لغرفة المعيشة، وتربع الجميع حولها بينما كان الضيف يفتحها، جلس بلال في حضن اخته بتشوق ويقظة، لكن دون ان ينطق بكلمة، وافرغت لحقيبة من محتوياتها غرضاً تلو الآخر، قناني، علب، جرات... كبسولات، حبوب، اقراص... نظارات للمطالعة، ضمادات لاصقة، رباطات، مقصات... مراهم، كريمات، مسكنات، صيدلية كاملة، مفروشة امامهم، تكفي كدفية لملك، افتح يا سمس، لتظهر العجائب امامهم في شكل انابيب، اكياس وحقن.

خيم جو من الصمت على المكان بعد الأحايث والضحكات العالية، بينما كان الكبار يراقبون الخال عمر عن قرب وهو يخرج امامهم اجزاء من الكنز، متممين بكلمات الشكر على كل ما يخرج، اما الشباب فقد اهتمامهم وتراجعوا ليجلسوا في كراسيهم، ينتظرون بصبر انتهاء العرض، فكرت امل انه من الصعب الهتاف بحبور الحبوب الكالسيوم!! او السقوط مغمياً عليها من فرط السعادة لحبوب الإسبيرين، حتى لو لم تكن قادراً على الحصول عليها منذ سنوات.

طوال هذه الفترة كان بلال يجلس في حضنها دون كلام، برغم من ذلك كانت تشعر بالإضطراب يسري في جسده الصغير كلما انحنت للأمام، كان ينظر بتركيز لكل قطعة تخرج من الحقيبة وكأن حياته تعتمد عليها، وحين فرغ الخال عمر من اخراج كنوزه، جلس الى الخلف وهو يقول (لم اجلب هدايا للأطفال، لم يكن هناك مكان لذلك مع كل هذه الأغراض وكيف لي ان اعرف ماذا يفضلون تحديداً؟)، لكنني اعلم ان الأطفال يستطيعون الاستفادة من بعض المال مني ومن خالتيهم، وبإشارة سريعة اعطى امل واقاربها الثلاث بعض الأوراق النقدية، ثم التفت واعطى شئ لوالد امل قائلاً (هذا للفتى الصغير)، إذا ليس هناك من مشاك شعرة جميلة ولا يلوزة، تلقى المراهقون هديتهم مع الشكر، ولكن حين استرقت امل نظرة خاطفة الى المال الذي في يديها حبست انفاسها، إذا فالخال عمر ليس بخيلاً!

وفجأة ووسط الهدوء الذي ما زال يخيم على المكان، تحدث صوت الصغير (اريد سيارة، سيارة حمراء) (سيارة سباق).

ضحك احد الأقارب من الصبيان ضحكة قصيرة، بينما التفت الجميع في دهشة لبلال، لكنه كرر مطلبه.

(اين سيارتي؟ اين الألعاب؟ سانتا كلوز لديه العاب، لبس فقط لديه هذه... هذه الأغراض، انا اريد سيارات السباق الحمراء، ارجوك اعطيني سيارتي)

توجهت نحوه ماما قائلة (لكن يا عزيزي، لم يستطع الخال عمر احضار اي سيارة، فقد كان عليه احضار اشياء اخرى)

وقال بابا مع ضحكة مفتعلة (ولن تسع هذه الحقيبة الصغيرة السيارة)، انزلق بلال من ركبة امل ونظر اليها والى امه وقال (لكنكما وعدتماني بقدم سائتا كلوز وانه سيحضر لي الألعاب، اين هي؟)

شعرت امل بموجة من الحيرة تسري في اطرافها كالبرد، نعم... بعد كل هذا، كان عليها ان تخبره، لم يكن عليها ان تختار الطريق السهل وان توافقه على كلامه في ذلك اليوم في المدرسة، ولكن كبت كانت ستعرف انه سيأخذ الأمر على محمل الجد لهذه الدرجة؟؟

قال الخال عمر متعلثماً بسبب الإحراج (ليس عندي سيارات، لكن عندي... عندي...) واخذ يفتش في جيوبه حتى اخرج منها علبة حلويات وقال (عندي هذا)

نظر بلال الى العلبة وكأنه مندهش كيف يمكن لسائتا كلوز ان يخطئ هكذا خطأً غيبياً، وقال (اريد العلب، اريد سيارة)

عندها تحدثت امه بصرامة (كفى يا بلال، ما من سيارات... هناك فقط اشياء نحتاجها)

وفجأة انفجر كل الترقب الذي كان يمور داخل بلال، ورمى بنفسه على الأرض، بكى وصرخ ضارباً بقبضته حاولت امل سحبه وحمله بعيداً لتهدئته، لكنها تلقت ركلة قوية منه. بينما حاول الآخرون لملمة الكنوز التي احضرها الخال عمر، كل هذه الأدوية والمكملات الغذائية التي احضرها بدلاً من الهدايا لتحميمهم من خروج بلال عن السيطرة كلياً. وأخذ يتحب ويكي ضارباً كل ما يصل اليه.

تحسست والدة امل الأدوية، حتى وجدت قنينة وفتحتها، قالت بصوت لاهت لأمل (ملعقة).

انه دواء لتهدئة نوبات احتياج بلال، وتمنت امل ان يكون اكثر من مجرد دواء سعال، وان يكون بالفعل دواءً مفيداً سوف يساعد في تهدئته.

وبينما حملت الأم الطفل الهائج، استطاعت امل ملأ ملعقة بالدواء وسكبته في فمه، وعندما هدأت تقلباته بعض الشيء، حملته امه الى غرفة النوم واغلقت الباب.

ورويداً انخفض صوت النحيب، كان جميع من في غرفة المعيشة في حيرة ودهشة. جمعت الخالة فريدة حصتها من الكنز، وقالت ان عليهم الذهاب الآن، و حاولت قول ذلك بلطف ودمائة.

بينما واصل الخال عمر اعتذاره اثناء وداعه مهمهماً (لم لاحظ... كان على احضر شئى ما)، (لا) رد عليه بابا بصوت يشوبه الغضب والكدر (اعذرننا، ماذا يمكن ان اقول، انه عار، خزي، لا افهم... ليس لدى ادنى فكرة عن السبب الذي يجعل طفلاً يتصرف بهذه الطريقة، ياله من عار، يجب ان يعاقب على ذلك).

حدثت امل نفسها (لا.. لن يعاقب، لا يستطيع بابا معاقبة ابنه الوحيد، وبالغالب خطأي انا، كان يجب على ان اخبر بلال، او اخبر ماما... ياللعسرة! يتوقع المرء اشياء ويتمناها بشدة، ثم لا يتحقق شيئٌ منها، هوما زال صغيراً جداً ليتعلم انه ليس بمقدورك ان تتوقعي اي شئ... ليس في هذا العالم).

لم ترى امل الخال عمر مرة اخرى، ذهب والداها لزيارته في منزل احد الأقارب، لم يجرأوا على المخاطرة من تكرار تجربة ما حدث بين بلال ساننا كلوز الفاشل، وبعدها رحل. شعرت امل بالأسف لأنها لم تتمكن من رؤيته بما فيه الكفاية، فقد بدا انه رجل لطيف، صحيح انه لم يكن ذكياً بما يكفي ليجلب بعض الأشياء للصغار، لكنه حاول ان يفعل الصواب، سوف تكتب له رسالة شكر لاحقاً.

في الليلة التي تلت رحيل الخال عمر، لاحظت امل ان في عيني والداها نظرة غامضة يحاول كبحه، وبعد وجبة المساء المكونة من العدس والأرز، وقبل ان يحين موعد نوم بلال، ناداه بابا.

و انحنى قليلاً ليقول (بلال، شيئٌ رائعٌ قد حدث، زائرنا الخال عمر، هل تذكره؟ لديه مفاجئة لك، لم يستطع ان يجدها في حقيبتة الكبيرة التي احضرها... انت تعرف)، تخوفت امل، كن حذراً يا بابا... (كانت حقيبة كبيرة، و شيئٌ ما قد فقد وسط كل هذه الأشياء، لكنه لاحقاً وجدها، وها هي!!)

وبابتسامة مرتعشة، اظهر بابا يده من خلف ظهره، وعلى راحة يديه كانت ترقد سيارة سباق صغيرة، بلون احمر زاهي ولامع، و بدت لأمل انها من الطراز الحديث، ترقد في يد بابا كالجوهر المتوهجة تحت ضوء المصباح المعلق فوق الرؤوس.

في البدء ظل بلال ببساطة متردداً، ثم مد يده الى السيارة، وحملها كما لو انها شيئٌ مقدس، وتفحصها من كل زاوية، ثم نظر الى ابيه، وسأل بصوت هامس (هل حصل عليها الخال عمر من ساننا كلوز؟، هل اعطاها ساننا كلوز للخال عمر؟)

(في الواقع لست متأكداً ولكني اعتقد ذلك)

(احضرها لي)

(نعم يا بلال انها لك)

وفجأة قال بلال بانفعال (تعالى يا ماما.. وانظري، ساننا كلوز اعطاني سيارة، لقد فعل.. لقد فعل)

جاءت امه من المطبخ، واخذوا يشاهدونه وهو جالس على ركبتيه، يحرك السيارة هنا وهناك في غرفة المعيشة، مُدّاً صوتها (برووووم، برووووم، ببيبيبي،!!!) كان بلال غارقاً مع نفسه في سعادة، لا وقت للنوم بالنسبة له، الا اذا غلبه النوم من فرط التعب بسبب هذه السعادة.

بقلب محتقن نظرت امل نظرةً خاطفةً الى والديها، بدا وجه والداها مشرقاً ويبدو كما لو انها كان نديا أو ربما متعرقاً، لا يمكنها ان تحدد، ذكرها التعبير المرسوم على وجه والداها بأقنعة الدراما، لقد رأَت صورتها في احد الكتب المسرحية، فربما التراجيديا والكوميديا ان يكونا متقاربين احياناً.

وجه والدتها كان خالاً من اي تعبير، كل ما بدا عليه، فقط حركة بسيطة ظهرت في زاويتي الفم، بعد دقيقة تبادل والد امل النظرات وبعض الكلمات الهامسة التي لم تلتقط الكثير منها بسبب الجلبة.

(حسناً ها هو الآن، اتمنى ان يدوم).

(على الرجل ان يجعل طفله سعيداً، كيف يمكنني ان احرمه من كل شيء؟).

وبهذه الكلمات تذكرت امل مرة اخرى المحادثة التي سمعته، بينما اندفع بلال محدثاً ضوضاء اثناء لعبه بالسيارة، ذكرتها كلماتهم بنقاش دار بينهم حاولت استراجع تفاصيل ما قد سمعته قبل ليلتين حين كانت في غرفتها تذاكر للإمتحان، سمعت نقاش حادا دار بين والديها في غرفة النوم، ها هي مفرداته تخطر لذهنها الآن، قالت امها بصوت مرتفع (كيف يمكنك فعل ذلك؟ تلك الكتب، انت تعرف مكانتها عند والدك؟).

(وهل من حل آخر؟ ليس هناك شيء).

(انه شيء لا يحتمل، حتى انني لا استطيع ان افكر في ذلك، انظر.... إذا كان عليك فعل ذلك، فعلى الأقل احضر له شيئاً يحتاجه).

(شيئاً يحتاجه !! إنه يحتاج الى كل شيء! اما الأموال التي اعطاني اياها عمر ستذهب لتلك الأشياء سق التي يحتاجها، ابني لم يملك لعبة جديدة طوال حياته، وهذا ما سأفعله انا له، وانا لا استطيع مواجهة، لا يمكن للرجل ان ينكر على ابنه ابسط اشكال السعادة، بإعتقادك هل يمكنه؟ الا يكفي بأن عمر اعتقد اني لا استطيع احضارها، اقسام بالله بأنني سأحضر هالة).

في هذه اللحظة، ابعدت امل الفكرة عن ذهنها، فقد سمعت هذا النقاش من قبل، حين يتفق والديها على التخلي عن اشياء ليسوا بحاجة حقيقة لها، كاللآنية الفضية، الطقم الصيني، قدر الضغط، السجاد، غطاء الطاولة المطرز، وبالطبع طاولة الطعام، لم تكن ترغب في سماع المزيد، الى جانب هذا يجب ات تركز على دراستها فالأستاذ كريم سيعطيهم امتحان صعباً، وهي تريد ان تقدم الأفضل.

لكن معاني الكلمات المريرة التي قد سمعتها ألمها، سيأخذ ابوها مزيداً مما تبقى من كتب العائلة ليبيعه لأحد الباعة الذين يبيعون الكتب في الطريق، واحد في طابور طويل من الأشخاص الذين يبيعون الأشياء المستعملة في سوق الأغراض المستعملة، إذا يقدمها الناس للبيع، حتى الكتب لم يعد بمقدورهم الاحتفاظ بها، لا احد يستطيع ان يشتري شيئاً هذه الأيام.

لكن هذه الخواطر الحزينة، اوحت لها بالفكرة البراقة، وبسعادة تذكرت انها تستطيع شراء كتاب، فهي احد المحظوظين الذين يستطيعون الذهاب لسوق الكتب، ليس فقط لبيعها بل لشرائها ايضاً، وعليها ان تفعل ذلك في القريب، فالأستاذ كريم سوف يسافر بعد الإمتحانات مباشرة، غداً سوف تأخذ المال من الرئيس وامين الصندوق (هالة)، ثم ستذهب للبحث عن افضل كتاب.

في اليوم التالي في المدرسة، وبعد نهاية الدوام المدرسي، اعطت هالة المال الذي جمعته من الفصل لأمل، وقالت (رفيقة ونائلة سوف يحضرن الحلويات، فقد اخبرتهن إننا سنحتاج الى بعض المنعشات). ثم انطلقت امل للبحث عن كتاب، سارت امل في شوارع المدينة، وقد حسبت المال للمرة الثالثة، ساهم والداها برضاء بقدر ما يستطيعون من المال ومن تلقاء فسهم، وقد سعدت بذلك كثيراً، سيكون من البغيظ ان لا تكون قد ساهمت، ورغم ذلك لا زالت غير واثقة من ان المال سيكون كافياً لشراء كتاب جيد.

كانت وقفته الأولى في مخزن الكتب الوحيد الذي تعرف ان لديه كتب جديدة، ولكنها سرعان ما احست بخيبة الأمل، فلم يكن لدى صاحب المحل سوى بعض الكتب الروسية المملة، تنهدت امل ثم توجهت الى الأكشاك المفتوحة في الهواء الطلق، في سوق الأغراض المستعملة.

نظرت الى الأمام مباشرة، سارت مسرعة مارة بكل الأغراض المعروضة موجه رأسها الى الأمام، فلم ترغب ان تخاطر بالنظر، فتجد شيئاً ما تعرفه كصينية امها الفضية، او تلك اللوحة الجميلة للريف الإنجليزي بغرفة ضيوف عمتها فريدة معروضة وعليها طبقة من الغبار.

على الأقل تبدو الكتب مجهولة الصاحب، فهي لا تحمل الذكريات المحبوبة التي تبقى في الذهن، لكن ما ان وصلت امل الى الشارع الذي تباع فيه الكتب حتى اندهشت في حيرة. الكثير، الكثير، الكثير من الكتب، طاولة تليها طاولة ثم اخرى جميعها مغطاة بالكتب، وهناك صف من الكتب المعروضة يمتد على امتداد البصر، كيف لها ان تصل الى الكتاب المناسب بين جميع هذه الكتب؟

باعة الكتب يبدون في مظهر رث وواهن، غير مهتمين بتاتاً بما يبيعونه غالباً انهم لا يميزون كتاباً عن الآخر، كيف يمكنهم ذلك؟ هم فقط يحاولون الإسترزاق في يأس؟

وبإصرار، بدأت امل السير في طريق الكتب، رأت الكثير من الكتب الدينية جميعها بالعربية، وكان الأكثر حزناً رؤية عدد غير محدود من كتب الطب والبحوث الطبية بالإنجليزية ولغات اجنبية اخرى، كيف يمكن للأطباء معالجة مرضاهم، إذا لم يحتفظوا بكتبهم؟ وكان هناك الآف الكتب الأخرى في جميع المواضيع. التاريخ، علم الاجتماع، العلوم، وتكنولوجيا الحاسوب، بعضها كان في حالة جيدة، لكن معظمها كان ملطخاً وبأغلفة مهترئة متدلية كأذن الكلب.

وبينما كانت تحدد في شارع ملؤه المعرفة التي ما عاد بمقدور احد الإحتفاظ بها، بدا لأمل انها تسمع صوت الأستاذ كريم وهو يحكي للفصل بفخر ولعدة مرات عن الأيام العظيمة التي كانت فيها بغداد مركز للمعرفة بالنسبة للعالم اجمع، وقبل مئات السنين حين كانت الحضارة الإسلامية في اوجها حين كانوا يحضرون الكتب من اماكن بعيدة كأسيانيا، والصين، وحتى طلبة العلم كانوا يأتون من كل بقاع العالم جالبين معهم الكتب، ليقرأوا، ينقلوا و يترجموا الكتب الثمينة في (بيت الحكمة)، كانت بغداد اسماً مرادفاً للكتب.

تذكرت امل حين انقلب نبرة الفخر في صوت الأستاذ كريم الى حزن، عندما حكى باقي القصة قائلاً ان هذه الفترة المزدهرة انتهت بدمار كامل حين اتى بدو من اواسط آسيا في القرن الثالث عشر ليحرقوا كل ما في طريقهم، وحسب ما وصفهم الأستاذ كريم (كانوا رجال بالكاد اكثر تحضراً من الخيول التي يركبونها)، في تلك الأيام المرعبة، اصطبغت شوارع بغداد باللون الدماء الأحمر، بينما اصطبغ نهر دجلة العظيم بلون الحبر الأزرق، وتأملت امل مكاتب بغداد الآن... هاهي امام عينيها، تذوي كتبها تحت الشمس والرياح والمطر، تغطيها بقع ثابتة، بسبب الهواء المغبر.

مرت امل على طاولة تلو الأخرى، الم يكن هناك كتب عن الأدب العربي، نعم، بضع روايات تبدو رخيصةً وسيئة، ليس من نوع الكتب التي يفضلها الأستاذ كريم، وعابنت بعض كتب النقد الأدبي، لكنها بدت مهترئة، كيف يمكن لأحد ان يأخذ كتاب هو في ذاته غير معجب به؟ ربما عليها ان تبحث عن كتب الأدب الإنجليزي، بما ان الأستاذ كريم قد درس بالإضافة للأدب العربي الأدب الإنجليزي ايضاً.

اخيراً، توجهت امل الى بائع كتب بدا مختلفاً عن الآخرين، صحيح انه كان بكتفين متهدلين وبدا عليه الإنهاك، لكن كان هناك ما يوحي بأن فيما مضى كانت لديه كتب ذات قيمة، وربما استطاع مساعدتها.

قالت له (اني ابحث عن كتاب ادب، ليكون هدية)

_ (لأستاذك؟)

حين اومأت برأسها، ففرك الرجل ذقنه الغير مخلوقة بتفكير وقال (لدي بعض منها هنا، انظري حولك)، لاحظت امل وجود مجموعة من الكتب الإنجليزية تحمل اسم (توماس هاردي)، وكتاب عن قدامي الإغريق، وبالطبع كتب كثيرة لشكسبير، إذاً فمن المحتمل ان تجد كتاباً جيداً هنا، لكن يملك الأستاذ كريم كتب لشكسبير دون شك، وكيف لها ان تعرف اي الكتب سيكون مميزاً بالنسبة له، وهي بالكاد سمعت عن كتاب مثل (هامنغوي) و (ديكنز)؟ بدأت امل تشعر بالندم لذلك الإعلان الجريء الذي قامت به في ساحة المدرسة؟ كيف تجرأت ان تقول انها تستطيع اكثر من اي شخص آخر ايجاد الكتاب المثالي؟ لقد ارادت بشدة ان تثير إعجاب الحشد المتجمع حول هالة، لكن الأمر بدا اصعب بكثير مما كانت تتوقع.

واخيراً حصرت امل خياراتها في كتابين، كتاب سميك مع رسم لحوت على الغلاف، بدا كتاباً جاداً بالرغم من رسم الحوت على الغلاف، وهناك مجموعة شعرية لرجل يدعى (روبرت فورست)، فتحت كتاب الشعر ووجدت ان قصائده قصيرة و ليس من الصعب قراتها، وقد يفضلها الأستاذ كريم. لكن ما ان اوشكت على اتخاذ قرارها، التقط بلع الكتاب كتاباً آخر لم تلحظه، (القي نظرة على هذا الكتاب، انه اغلى من ان تستطيعي دفع ثمنه، لكن يمكنك ان تلقي نظرة عليه يا أنسة).

كان كتاباً جميلاً، جميلاً بحق، غلافه جلدي مزينٌ بنقوش عربية بارزة بلون ذهبي فاتح، فتحت منتصف الكتاب، ولمست برفق صفحاته المزينة بإطار ذهبي، كان للورق ثقياً جداً كما لو انه قماش، والحروف المطبوعة تنساب كما لو انها خيوط حريرية، كانت الصفحات مزينة بألوان غنية مرسومة باليد، هل هو أقرآن؟ لكن امل تعرف القرآن سيبدو جميلاً لدرجة تخطف الأنفاس، ثم ان هذا الكتاب ليس سميكاً، انه في الأغلب كتاب شعر. قرأت الاسم على الغلاف (ابو نواس)، انها تعرف هذا الاسم، كانت قد درست بعض قصائده في الفصل، ورغم مرور الآف السنين على كتابتها الى انها قصائد رائعة، انه الشاعر المفضل للأستاذ كريم، حين يتحدث عن ابو نواس، ينسى خجله ويحلق في نشوة.

إذاً هذا هو الكتاب المناسب! انه جميل، مميز، ويحمل قصائد ابونواس التي يفضلها الأستاذ كريم على الآخرين، إذاً يجب عليها ان تشتريه.
قال بائع الكتب بحزن (يجب علي ان اطلب مبلغاً محترماً مقابل هذا الكتاب، انه كتاب نادر، عمره اكثر من مئات السنوات، انا متأسف يا أنسة).

قامت امل بحسبة سريعة في عقلها، ان المبلغ الذي جمعه من زميلات الصف لا يساوي سوى نصف سعر الكتاب، ولكن يمكنها ان ستساوم على السعر، تطلب من الرجل ان يخفض سعر الكتاب قليلاً، لكن اساساً سعر الكتاب كان اقل مما يستحق، انظر الى الأطراف المذهبة، ليس من اللائق المساومة على هكذا كتاب.

و ابتلعت امل ريقها، ونطقت الكلمات بقوة (انا...اريد هذا الكتاب، ولكني لا املك المال الكافي وكني سوف أحاول ان احصل عليه، ارجوك لا تبعه لأي شخص آخر، انا سوف احضر مرة اخرى غداً).

واعادت الكتاب لبائع الكتب مرة اخرى الذي رفع كتفيه بعدم مبالاة، بينما وضع الكتاب في جرابه، كان واضحاً انه لم يتوقع ان يبيع هذا الكتاب وربما ولا اي كتاب في الوقت القريب. وبينما سارت امل بعيدا عن محل الكتب كانت تشعر بأنه يراقبها وهو يهز رأسه بإستسلام.

لكن من اين لها ان تجلب المال الذي وعدت بتسرع انها ستحضره؟ فلا هي ولا حتى هالة بمقدورهن ان يجمعوا من الفتيات ما يكفي من المال، يجب ان تصرح بأنها لا تستطيع وبالتأكيد لا يستطيع والديها دفع الفرق، كم من المخرج ان تعد الآخرين بإيجاد (الكتاب المثالي)، وبعدها لا تتمكن من تحقيق ما وعدت؟ لم تجد امل سوى حل واحد ممكن، خطر في ذهنها كما لو كان ضيفاً غير مرحب به، ويجب عليك استقباله بترحاب زائف.

انه المال الذي اعطاها اياه الخال عمر لتشتري به هدية لنفسها سيصنع الفرق. لا.. هذا ليس عدلاً بتاتاً ان تتحمل مسؤولية شراء الهدية، ثم ينتهي بها الأمر أن تدفع اكثر مما شاركت به باقي زميلاتها، لكن ماذا يمكنها ان تفعل؟

تنهدت امل وسرحت بعينها واحست بوخز فيهما بينما كانت تركض بعيداً عن سوق الأغراض المستعملة، مارةً بأدوات المطبخ، بملابس الأطفال، الإكسسوارات، الأثاث، الساعات، اجهزة التلفاز العمياء، والحواشيب الميته، سيكون رائئاً لو تمكنت الحصول على بلوزة جديدة، او فردتي حذاء ما كانت سترتديهما قريباً.

حضرت امل في اليوم التالي الى المدرسة لتتلقى الدروس الإضافية التي تدرس في العصر، مما بالكاد يمكنها من العودة لالى سوق الكتب في اليوم التالي، كان عليها ان تسرع، لكنها عادت الى المدرسة بفرحة تشبه نشوة النصر ما زالت تحوم في رأسها.

الكتاب الثمين في حقيبتها واللقاء الثاني الذي جمعها بصاحب المحل ما زال يحوم في ذهنها، عرفت امل انها لن تنسى وجهه، اندهش الرجل حين رآها فجأة، وهي تظهر امامه تطلب ديوان ابي نواس وتمد له يدها بظرف ممزق فيه المال بينما كان هو واقفاً في دهشة. كان لقاؤه بالنسبة لها قصة في حد ذاته قصة.

توسلت امل صاحب المحل الا يستخدم الجرائد القديمة للف الكتاب، وقد اتفق معاها ان هذا الكتاب يستحق افضل من لفه بالجرائد، وبعد فترة لفه بورق بني مجعداً بعض الشيء، وانتظرت امل بفارغ الصبر ان يسلمها الكتاب بينما كان يلفه بترو ومحبة، ويمس الورق حوله ثم وضع ختماً يشير الى المحل الذي اشترى منه الكتاب، وبدا لأمل كما لو انه يفضل الاحتفاظ بالكتاب على ان يأخذ المال، واخيراً قدمه لها مع ابتسامة لطيفة وانحناء مهذبة جعلت امل تود ان تحتضنه.

وصلت امل الى المدرسة ملؤها الحماس، وكانت بعض خصلات شعرها السائبة تنتطير، اعتلت السلم المؤدي الى فصلها، لم تكن تصدق انها قادرة على التحرك بهذه السرعة، كانت امها ستقلق لو رأتها هكذا! من اين انت بكل هذه القوة، بالتأكيد من الشعور بالسعادة، وقبل ان يبدأ الدرس بثواني، انحسرت في كرسيها وابتسمت إبتسامة عريضة للفتاة التي تجلس بجانبها.

إمتحان اللغة العربية الذي امتحنوه قبل عدة ايام لم يكن صعباً للغاية، وفكرت امل إنه ربما اراد الأستاذ كريم ان يجعله كهدية وداع لهم، او ربما كانت هي قد تحضرت جيداً للإمتحان، وعندما وزعت الأوراق المصححة على الطالبات بدا عليهن الإسترخاء، وتحول التوتر الى دردشات، في هذه اللحظة زحفت هالة الى درج امل وهمست

(حسناً... هل احضرتها؟ هل تذكرت؟)

_ (نعم انه في حقيتي... وهو كتاب جيد).

رمقتها هالة بنظرة شك باهتة وقالت (حسناً سأعلن عن الحفل الآن).

وبينما كل الأستاذ كريم متوجهاً الى مقدمة الفصل، وقفت هالة بطريقتها المتحكمة والمعتادة، في حين حاولت امل النهوض من مقعدها الذي كان مكسورا ومائلاً بشدة نحو الدرج، اخيراً استطاعت ان تنهض وان تقف بجانب هالة في مدخل الفصل، ممسكة بحقيبتها بشدة، التفت الأستاذ كريم وفي عينيه نظرة حائرة وبدون باقي الفتيات ايضاً محتارات لكنهن يقين في اماكنهن.

(أستاذ كريم) قالت هالة بنبرة رنانة (يوسفنا انك سترحل، لذا حضرنا لك حفلة صغيرة، ليس هناك موسيقى ولا رقص، فقط بعض الحلويات الذيدة، رقيقة ونائلة هل الحلويات جاهزة؟)

احضرت رقيقة صينية فيها قطع صغيرة من الفطائر المحلاة، واخذتها منها هالة وبايمامة واضحة قدمتها للأستاذ كريم، ثم دارت الصينية في غرفة الفصل، واصلت هالة تقديمها.

(كما لدينا ايضاً هدية للأستاذ كريم حتى يتذكرنا، جميعنا فكرنا مطولاً في ماهية افضل هدية يمكن ان نقدمها لك، واخيراً قررنا- لنرى ماذا... امل؟)

سحبت امل اللفافة البنية من حقيبتها وتقدمت خطوةً الى الأمام، وقالت قبل ان تواصل هالة الحديث (قررنا ان هذا النوع من الهدايا قد يكون ربما الأنسب، اتمنى_ نتمنى ان تعجبك) وقدمتها له.

اتسعت عينا الأستاذ كريم في دهشة وبدتا اكبر خلف نظارته، وبتردد قبل ما قدم له، وشكرهم بتعلم، حين لاحظ ختم بائع الكتب على الورق البني، قال (نعم.. اعرف هذا الرجل، لديه دوماً كتبٌ جيدة)، واخذ يفتح اللفافة على مهل، برفق واحترام، تماماً بذات طريقة بائع الكتب، واخيراً حمل الكتاب الرقيق والنحيف في يديه، ونظر اليه بعناية، استحضرت امل في هذه اللحظة اخيها بلال حين حمل لأول مرة سيارته الحمراء الرائعة.

(ياالله) شهق الأستاذ كريم (ربي... ابو نواس.. انه رائع!! جميل.. جميل!! ماذا يمكنني ان اقول؟ هل هذا من الفصل؟ من جميعكن؟)

ردت جميع الأصوات بالإيجاب، بينما تحلقن حول الكتاب لمشاهدته.

_ (لكن كيف تمكنتن.. انه مكلف.. كيف وجدتن هكذا شئ؟)

تلعثمت امل (انا . . . انا ذهبت للتسوق). بالتأكيد لا تستطيع ان تقول انها اشترته من سوق الأغراض المستعملة حتى وان كان يعرف ذلك (لقد... لقد ذهبت للتسوق، وبحثت، ثم اخيراً وجدت هذا، تذكرت انك حدثنا كثيراً عن ابي نواس وقرأنا بعض قصائده).

تحسست اصابع الأستاذ كريم ذات العظام البارزة الزينة الرائعة على الغلاف، تلمس اطراف الصفحات المذهبة، وارتجف صوته وهو يقول (انه جميل جداً، لم يخطر على بالي ابدأً ان احصل على هكذا كتاب، اشكركم من اعماق قلبي يا فصلي العزيز).

شعرت امل ان عيون زميلاتها توجهت نحوها، وسمعت همساتهن الخافتة. نعم لقد اثارت اعجابهن وكن سعيدات، شعرت امل ان قلبها صار كبيراً.

رفعت هالة صوتها وقالت (يسرنا انها اعجبتك يا استاذ كريم) .

_ (آه نعم" رد هامساً، لقد احببته كثيراً).

وتدريجياً وبينما انتهت باقي الفتيات من الحلويات ودعن استاذهن وبدأن بالمغادرة، اما امل وهالة فتريشن في الخروج قالت امل بتردد (لقد شاهدت كتباً اخرى جميلة، وكنت على وشك اختيار كتاب شعر حديث لرجل يحمل اسماً إنجليزياً مضحكاً، لكن حين رأيت هذا الغلاف الجميل وقرأت العنوان..).

_ (نعم، نعم لا يمكن ان يكون هناك ما هو افضل من ذلك).

اخذ الأستاذ كريم يقلب الصفحات واحدة تلو الأخرى، يلمس كل واحدة منها كما لو كانت مصنوعة من حرير نادر، وبرفق فصل صفحتين بدا واضحاً انهما التصقتا بسبب الرطوبة، او الحواف المذهبة، وحين فصل الصفحتين، توقف وحقق عن قرب اكثر، وبدت تقطبية على سحنته الهزيلة.

تساءلت امل ماذا يمكن ان يكون قد رأي في الكتاب ما جعله يحتر او يزرعج؟؟
وتمتم الأستاذ كريم (ياللعار... يالها من مأساة!!)

(ماذا؟) تساءلت هالة (ماذا؟ ما مشكلة الكتاب؟... امل لماذا لم تقومي...).

ارتبكت امل وحاولت ان تقول شيئاً، لكن الأستاذ كريم قاطعهم قائلاً (لا عيب في هذا الكتاب، سوى ان الكتاب الذي بين يدي -وابتلع ريقه بصوت مسموع- هذا الكتاب يعود للبورفيسور الذي درسني في الجامعة، كان رجلاً رائعاً، معلماً فاضلاً، واستاذاً ممتازاً، كيف يملك هكذا كنز ثم تأتي عائلته لتتبعه؟ لو علم بالأمر لنفطر قلبه... انظروا هذا هو اسمه).

وحمل الكتاب بحيث يمكن لكلا الفتاتين ان تريا التوقيع على الصفحة، نظرت هالة ولم تجد ما هو محزناً في الأمر فقط إبتسمت إبتسامة ضئيلة، بينما جمدت عينا امل على الإسم لوهلة، وحبست انفاسها بتعجب.... هناك، بخط انيق، كتب اسم جدها.

وفجأةً أصبح كل شيء واضحاً، أبو نواس يساوي سيارة حمراء صغيرة، جوهرة مكتبة جدها قد بُيعت لجعل بلال سعيداً، لتساعد صبي صغيراً على تصديق ان الأشياء الجيدة قد تحدث أحياناً، وان ساننا كلوز قد لا ينسى تماماً اطفال بغداد.

وبعينان متسعان نظرت امل الى الأستاذ كريم، والتقت نظراتهما للحظة، وفكرت (نعم... لقد فهم)، قال الأستاذ كريم بصوت منخفض (اتمنى لو استطيع ارجاع الكتاب لعائلة هذا الرجل الرائع)، شعرت امل بأن احساس متضاربة تمزقها، شعورها بالعار لأن عائلتها باعت الكتاب، ومعجزة انها وجدته، والسعادة برؤية ماذا يعني الكتاب بالنسبة للأستاذ.

بحثت عن كلمات مناسبة لتقولها، واخيراً قالت بلطف (ربما في يوم من الأيام، لكن على كل حال، اعتقد انهم سيكونون سعداء بوجود الكتاب معك، يا استاذنا)، اجاب هو (الى ذلك الحين.. يشرفني الإحتفاظ به).

وبينما غادرت الفتاتان الفصل، كانت امل بالكاد تستوعب درشة هالة، التي انسقت في حديثها كما ينساق نهر دجلة في الضباب، كانت تقييم الصورة التي استقرت في ذهنها، صورة الكتاب يرقد على اصابع استاذ كريم النحيلة، وصورة السيارة الحمراء وهي ممسوكة بقوة في يد بلال الصغيرة.